كامب ديفيد أخطر معارك السلام في التاريخ

معركة السلام بدأت في أكتوبر ١٩٧٣

المصور: مارس ١٩٧٩

بقلم : صبري أبو المجد

قبل أن أخط حرفا واحدا في هذا أرى لزاما على كمواطن عربي مصري، أولا، وقبل كل شيء أن أسجد لله العلي القدير شاكرا، نعمه علينا أذ وفق قائدنا ورئيسنا وزعيمنا محمد أنور السادات لما فيه خير مصر، وخير العرب بل وخير البشرية جمعاء.

فقد كان الله سبحانه وتعالى دائما مع عبده المخلص المؤمن محمد أنور السادات كان معه في كل خطوة خطاها وفي كل معركة خاضها: كان معه في ١٥مايو ١٩٧١، وكان معه في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، كما كان معه في مباحثات كامب ديفيد التي جاءت هذا الأسبوع بالسلام القائم على الحق والعدل واحترام إرادة الشعوب.

أؤمن إيمانا قويا جازما، ثابتا، ببعض الحقائق التاريخية التي أرى- وبحق – أنها فوق كل جدل، أو شك .

أؤمن – مثل- بأنه لو لم يكن ذلك اليوم الأغر- يوم ١٥ مايو ١٩٧١ – الذي قاد فيه أنور السادات، شعب مصر، للقضاء على كل مراكز القوى التي أذلته، واستبعدته، وتملكته ما كان ابدا ذلك اليوم، التاريخي الخطير، الذي عبرت فيه بأمر القائد البطل محمد أنور السادات، وتخطيطه قواتنا المسلحة الباسلة قناة السويس- أقوى مانع عرفته الحروب- وحطمت فيه- في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، العاشر من رمضان العظيم، خط بارليف، ذلك الحصن العنيف العنيد محققة بذلك كله، أعظم وأخلد وأروع الانتصارات العربية في عصرنا الحديث.....

وتؤمن أيضا- وفي نفس الوقت – بأنه لو لم تنجح قواتنا المسلحة الباسلة- ومصر كلها خلفها- في تحقيق ذلك النصر التاريخي العظيم، الذي أثبت للعالم كله" قدرة القيادة المصرية على التخطيط الممتاز، والإعداد الدقيق وقدرة المقاتل المصري على السيطرة على الأسلحة الحديثة واستخدامها الاستخدام، الفعال جنبا إلى جنب مع شجاعته النادرة" لولا ذلك النجاح الباهر، والنصر المؤزر الذي حققناه في ٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكتوبر ١٩٧٣ ما استطاع أبدا ابن مصر، وقائدها، وزعيمها أنور السادات أن يفكر مجرد تفكير في القيام بمبادرته العظيمة الشجاعة في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧.

واؤمن أيضا- وفي نفس الوقت – بأنه لو لم يقم أنور السادات، بالقضاء، على حاجز الشك: لو لم يذهب إلى عقر دار العدو الإسرائيلي من مركز القوة: لو لم يجازف بكل شيء، بما فيه حياته، هو شخصيا، لو لم يهز الضمير العالمي كله وفي مقدمته الضمير الأمريكي:

لو لم ينجح في إيقاظ الإسرائيليين وفي تحويلهم من الرغبة في السيطرة وامتلاك أراضي الغير إلى الرغبة في أن يعيشوا بسلام مع جيرانهم لو لم يقم أنور السادات في ١٩ نوفمبر بمبادرة السلام ما تحقق ابدا السلام، الذي بدت بواكيره، وأطل على العالم نوره في كامب ديفيد في

١٨ سبتمبر ١٩٧٨....

أن كل حقيقة من تلك الحقائق التاريخية الأربع مرتبطة بالأخرى، ارتباطا وثيقا ومتصلة بها اتصالا قويا، بحيث لا يمكن لواحدة منها أن تنفصل عن الحقائق الأخرى التي سبقتها، أو تلتها هل كان ممكنا- مثلا- لقواتنا المسلحة الباسلة الشجاعة ومن خلفها شعب مصر، العظيم البطل صاحب التاريخ المجيد العريق، أن تحقق للعرب أروع وأعظم ، وأخلد انتصاراتهم بينما مصر، طليعة الكفاح العربي، وقاعدته اشبه ما تكون بضيعة صغيرة، تحكمها وتتحكم فيها بل وتملكها بكل من فيها وما فيها جماعة امتلأت قلوب أصحابها بالحقد، والمرارة على كل أبناء مصر، وفرضت نفسها بالحديد والنار على شعب مصر، وجعلت من نفسها- ومن نفسها فقط- وصية دائمة عليه تتحكم- بالغباء والحقد الأعمى – في كل امور صغيرها وكبيرها:

تستبيح كل حرماته، وتقضي على كل كبريائه ، وتنال بالظلم البين من كل مواطن، حتى لقد " نجحت " في زمن وجيز من فترة حكمها! أو تحكمها

قبل حرب أكتوبر كان السادات داعية سلام، وفي أثناء حرب أكتوبر وبعدها كان يبذل كل جهد ممكن حتى يسود السلام.

كانت مبادرة السلام في مقدمة أحداث العصر. وكانت زيارة السادات للقدس أخطر رحلة يقوم بها رئيس دولة في التاريخ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعنى أدق أن تحيل مصر إلى سجن كبير، لا مكان فيه ألا كـالقهر والـضغط والتعـذيب والإرهـاب وانتهاك الحرمات والقضاء " بعبقرية" الحقد الأعمى على كل القيم الرفيعة والمثل العليا، التي ولـدت يوم أن ولد شعبنا العظيم الخالد، أبدا.

أكان ممكنا- مثلا- لجنودنا البواسل الشجعان – مهما بذلوا من جهود ومهما قدموا من تـضحيات – أن يحققوا ما حققوه في ٦ أكتوبر رمضان العظيم بينما مصر، لا تزال ترسخ في قيود الذل والعبوديـة، ولا تزال محكومة بمجموعة من " أغبى" ما عرفه التاريخ من الحكام: كل مصري مهما كان مركزه حتى لو كان في أعلى الوظائف، وأرقاها وأكثرها مسئولية، غير أمن على نفسه، وولده وماله ورأيـه ويومـه، وغده، : كل مصري مهما كانت الخدمات التي قدمها لبلده، والتضحيات التي بـذلها مـن أجـل خدمـة شعبه- يمكن أن تنتهي حياته في لحظات، بسبب وشاية واش لا خلق له، ولا ضمير لديه، أو بسبب عدم رضاء أي من المسئولين عنه حتى لو جاء عدم الرضا هذا في لحظة طيش، أو لحظة غضب؟

أكان ممكنا- مثلا- لمصر والعرب أن يحققوا مثل هذا النجاح الأسطوري الذي تحقـق فـي ٦ أكتـوبر رمضان العظيم، ومصر لا تزال محكومة بأيدي أولئك الذين قادوها وقادوا العرب معها إلى هزيمـة ٥ يونيو" حزيران" ١٩٦٧ ، والذين اقتصرت كفايتهم العسكرية وقدراتهم القتالية، على أن يستوحوا خطـط الحرب والمواقيت المناسبة للقتال من قراءة الكف، ومن تحضير الأرواح.

أكان ممكنا- مثلا- أن ننتصر في حرب كحرب أكتوبر وشعبنا العظيم العريق، الخالد أبد الدهر ممـزق الأوصال مشتت الغايات والاتجاهات، فريسة الأهواء، والأغراض والأحقاد والحزازات، أن شعب مصر في ظل هذه الجماعة كان يعيش حقا في مصر، ولكنه في الحقيقة وواقع الأمر كان محكوما عليها بالنفي داخل مصر، وليس أقسى على المواطن، أي المواطن أن ينفى من بلده وإنما الأقسى والأمر، والأفظـع أن ينفى في بلده:

أن شعب مصر – مثلا- في تلك الفترة ، التي ابتلى فيها حقيقة بحكم تلك الجماعة لم يكن أبـدا يعـرف شيئا ما – أي شيء – عما يدور منه- مثلا- أن يقدم كل ما يملك من أجل الحرب، وهو يعرف جيـدا، أن أية حرب يمكن أن يخوضها هؤلاء القوم، لا يمكن أولا أن تكسب، ولا يمكن – ثانيا- ألا أن تحمـل له، استبدادا أكثر، وظلما، أوفر واستعمارا، أقسى وأفظع وأشنع!

وأخيرا ، وليس أخرا، كما يقولون، هل كان ممكنا أن ننتصر، في الحرب. أي حرب وحكـام مـصر، المسيطرون، على كل شيىء فيها المتحكمون في مصير كل ابن من ابنائها، القابضون، بالحديد والنـار على كل من فيها، وما فيها قد زرعوا الشك والحقد في قلب كل عربي، وجعلوا من أي مصري يـذهب إلى أي بلد عربي داعية تخريب، وعامل فرقة ! لقد " نجح" هؤلاء القوم، في تمزيق الأمة العربية شـر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ممزق. جعلوا منها قوى معادية، للنظام المصري. قسموا الشعب العربي، وفي مقدمته حكامه إلى فئات، وطبقات... فرضوا وصايتهم على الأمة العربية، كما فرضوها على شعب مصر: هم وحدهم، الذين يمنحون صكوك، الغفران، وشهادات استثمار القومية العربية، وهم وحدهم الذين يدخلون من يشاءون إلى الجنة ويخرجون منها من يريدون اخراجه، وهم وحدهم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في مصير كل نظام عربي، وكل حاكم عربي: هذا النظام، أو هذا الحاكم ، يجب أن يذهب، وهذا الحاكم أو هذا النظام يجب أن يبقى؟

وفي الحقيقة أن أي نصر، كان يحتمل ، الحصول عليه من خلال خوض أية حرب في ظل مراكز القوى كان من الأمور المستحيلة، ولو بقى هؤلاء القوم، في مراكزهم لو بقيت لهم القدرة على الحكم ، والسيطرة على مقاليد البلاد: لو ظلوا قابضين على كل مقاليد السلطة، والسطوة ما استطاعت مصر وما استطاع العرب مهما بذلوا من جهود شاقة ومضنية ومهما قدموا من تضحيات عزيزة غالية بقادرين أبدا على تحقيق النصر أي نصر! ولو لم تبادر مصر بقيادة السادات إلى القضاء قضاء مبرما، على كل مراكز القوى تلك ولو لم تصر مصر والسادات إصرار كاملا وشاملا على ألا تقوم في مصر – آية مراكز قوى جديدة ما استطاع شعب مصر، أبدا، أن يحقق النصر الذي حققه في أكتوبر العظيم.....

وبعبارة قصيرة موجزة نقول: أننا لم نكن أبدا بقادرين على الخروج من تلك ، المحنة التي ابتلينا بها في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ما لم ترفع الوصاية، بصفة قاطعة عن الشعب وما لم يصبح شعب مصر ، هو وحده صاحب كل قرار يتصل به وما لم يعد إلى القانون، احترامه وقوته وسلطته وما لم يتحول شعب مصر إلى شعب مقاتل لا يتردد أبدا في تقديم أية تضحية ما دام متأكدا من أنها لا تضيع هباء ولا يجفل أبدا عن مواجهة أية قوة خارجية ما دام قد ضمن جبهته الداخلية،قوية، وان قيادته السياسية والعسكرية تتميز بالحكمة، والقدرة،والشجاعة، والاستعداد للتضحية !

وما لم يكن الشعب –كل الشعب- مؤمنا إلى ابعد حدود الإيمان بان الحرب التي هو مقدم عليها، والتي هو متأهب لها، مضحيا بكل شئ، بما فيها الروح في سبيل كسب قضيتها،سوف تحمل له تلك الحرب الديمقراطية والحرية، والأمن والاطمئنان وما لم يكن هو - أي الشعب – مشاركا ، مشاركة فعلية في كل أمر من أمور تلك الحرب، وليس مساقا إليها كما كانت السلطة أيام الحكم البريطاني، في أثناء الحرب العالمية الأولى تسوق " المتطوعين"!!

وفي الواقع لم يكن تحقيق النصر، في تلك الحرب أبدا من الأمور الهينة، بل كان لابد، لكسب تلك الحرب من الأعداد، لها أعداد يفوق أي أعداد أخرى، لأية معركة تاريخية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونحن الذين عاصرنا عن قرب معركة الأعداد لتلك الحرب نقولك أن معركة الأعداد لتلك الحرب لا تقل أبدا خطورة عن الحرب ذاتها: نقول عن إيمان صادق ، راسخ أن عبقرية أنور السادات، كقائد عسكري وكزعيم سياسي قد تجلت في تلك المعركة: معركة، الأعداد لتلك الحرب بصورة تاريخية فذة، لقد كان الشعب أثر خروجه من حرب ١٩٦٧ ممزقا يائسا بائسا مصابا في كبريائه وكرامته... وكانت القوى " الصديقة" والحليفة، في داخل البلاد وخارجها تبذل كل ما تستطيع من جهد، ولديها المال، الوفير – للإبقاء على مصر ضعيفة هزيلة لا حول لها ولا قوة ولا أمل لأبنائها في الخروج من دوامة اليأس الشنيع، الذي ظلت فيه منذ ٥ يونيو ١٩٦٧ : كانت المعاناة شديدة وكانت المرارة التي يحس لها شعب مصر، أشد ويوم أن يقول التاريخ كلمته عن معركة المعاناة أومعارك المعاناة التي خاضها الشعب المصري وخاصة في الفترة التي سبقت حرب العاشر من رمضان سوف يقول، أن شعب مصر، كان عظيما للغاية وهو يرتفع فوق الجراح، وهو يقفز، فوق الآلآم وهو يعاني قسوة الحياة المادية وغير المادية التي كانت تعتصره، كل يوم، وسوف يقول التاريخ أيضا، أن أنور السادات كان كالعهد به حقيقة عظيما، عملاقا لم يتردد أية لحظة في أن يبذل كل ما يملك من جهود لحل المشكلة حلا ، سلميا، لم يضعف أمام حملات المتأمرين في الداخل والخارج، لم يتوان، لحظة منذ أن آلت إليه مقاليد الأمور في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ عن العمل بهمة وذكاء وإصرار وصدق على أن يكسب معركة السلام، أو معركة الحرب، إذا لم يتيسر له أن يكسب معركة السلام.

يقول جون بولوك في كتابه" الإعداد للحرب" الشرق الأوسط من ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ " : لقد وحد الرئيس السادات صفوف العرب بصورة لم تحدث أبدا من قبل، أنه هو الذي صاغ التحالف مع الملك فيصل، ذلك التحالف، الذي أدى، إلى وضع ثروة السعودية ومكانتها في خدمة العرب لأول مرة: والسادات هو الذي نجح في الوقت نفسه في تجنيد الدول "الثورية" في معركة يهيمن عليها منافسوها من الدول المجاورة، والرئيس السادات الذي دفعت به ظروف إصابة عبد الناصر، بأزمة قلبية مبكرة قاتلة، إلى شغل منصب رفيع، كان أكثر الزعماء، العرب كلهم تعرضا لسوء الفهم كما كان أكثرهم تعرضا للمعاناة في أحوال كثيرة، ولقد كانت سياسته واضحة كان ينهج كل سبيل يمكن به التوصل إلى تسوية متفق عليها مع إسرائيل في الوقت الذي كان يستعد فيه لمواجهة عسكرية معها، لم يعد أمامه بديل سوى، المعركة ، التي ظل يحذر دائما بأنها محتملة والذي ظل يعمل جاهدا على تجنبها...."

ومن بين ما قاله جون بولوك وهو يتحدث عن الشهر الحاسم، شهر أكتوبر: كان السادات رجلا أسيء فهمه بصورة كبيرة لقد ظل طوال سنوات مضت يحذر من العواقب إذا لم يتم التوصل إلى تسوية متفق عليها في الشرق الأوسط، وإذا ما استمرت إسرائيل، ترفض التخلي عن الأراضي التي احتلتها في سنة ١٩٦٧ أو التفاوض،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حول تعويض مليوني فلسطيني أرغموا على مغادرة وطنهم منذ سنة ١٩٤٨ أو فروا خوفا مما قد يحل بهم، ولم يكن أي إنسان يصدق السادات وكان كلما ازداد تحذيره، قل الميل إلى تصديق ما يقول حتى أنه في النهاية كانت خطب السادات التي يتنبأ فيها بنشوب الحرب هي التي ساعدت على تمكين المصريين، والسوريين من شن هجومهم المفاجئ.

لقد كان الطريق إلى الحرب طويلا، وشاقا ، بدأ بالهزيمة المشينة التي لحقت العرب عام ١٩٦٧، والتي تضاعفت عندما اضطر الرئيس عبد الناصر تحت وطأة العذاب الشديد الذي توقعه المدافع الإسرائيلية إلى قبول وقف إطلاق النار الذي تبنته أمريكا عام ١٩٧٠ ولكن السباق نحو النزاع الفعلي لم يبدأ إلا عندما وطد السادات دعائم حكمه في عام ١٩٧١ ولم تتخذ الاستعدادات النهائية إلا منذ فبراية عام ١٩٧٣.

ومن اليسير إذا ما تأملنا الماضي أن نرى بجلاء، مدى ذلك كله، بالرغم من عدم وضوح أي شيء في ذلك الوقت وبالرغم من التجاهل، الذي كانت تقابل به التحذيرات، التي دأب السادات على توجيهها، فقد فسرت خطوات الاستعداد الواضحة منذ تولي السادات سلطات جديدة، قبل الهجوم بستة أشهر أنها تمثيلية أخرى للاستهلاك المحلي، كما اعتبر تزايد النشاط الدبلوماسي بين مصر وسورية والسعودية أمرا روتينيا، وقوبلت تحذيرات الملك فيصل الجادة والمتكررة بالتجاهل، وأغلقت تقديرات المخابرات وصورت متاعب سورية الداخلية بطريقة تنطوي على المبالغة، كما كان هناك استخفاف بالجيش المصري وفي الوقت نفسه كانت المجادلات المستمرة بين الدول العربية والافتقار إلى وحدة الهدف بينها من الأمور المسلم بأنها ستظل باقية دائما وأنها ستحول بقوة دون قيام العرب بأي عمل موحد إذ كان العالم الخارجي قد تكونت لديه صورة مشوهة وزائفة عن الشرق الأوسط.

وكان ذلك خطأ مفهوما، فعلى مدار السنين، ينفق العرب كثيرا من الوقت في قتال بعضهم البعض، أكثر مما أنفقوه في مقاتلة عدوهم، وقتل من الفدائيين الفلسطينيين بإيدي العرب عدد أكبر مما استطاعت إسرائيل أن تقتله، وبدا أن سوريا كانت تعتبر الملك حسين عدوا أكثر من جولدا مائير، لأن سوريا دفعت دباباتها إلى داخل الأراضي الأردنية قبل ذلك، وبالرغم من تأييد العراق للفلسطينيين فإنه لم يفعل شيئا من الناحية العملية أما العقيد القذافي فقد كان يبدو أكثر تصميما على بناء ليبيا، منه على تقويض الكيان الذي أقامته إسرائيل والذي كان يصفه مرارا بأنه كيان طفيلي، وكان اهتمام الجزائر وتونس والمغرب بالأحداث في شرق البحر الأبيض المتوسط، ضئيلا، بينما كانت دول الخليج المحافظ تعتبر خطر التهديد من جانب النظام الماركسي، القائم في عدن ملموسا، أكثر من الخطر الذي تمثله إسرائيل بالنسبة للعالم العربي بأسره".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصف جون بولوك بداية حرب ١٩٧٣ بقوله: عندما انطلقت المدافع في ٦ أكتوبر، وبدأ الجنود المصريون والسوريين الهجوم، انتهى عصر العار بالنسبة للعرب، وسواء خسروا أو كسبوا فليس هذا هو المهم، ذلك أن ما كانوا يقاتلون من أجله هو إحساسهم بالكبرياء، والرجولة ومن ثم فإن ست سنوات من اللاسلم واللاحرب كاملة مهزومة ومن النظر إليهم باعتبارهم شعبا، على أدنى مستوى قد زالت، عندما اجتاحت القوات المصرية خط بارليف وتحركت الدبابات من ملاجئها وعبرت هضبة الجولان....و...و..

وينهي جون بولوك كتابه بقوله:

وكان هناك أبطال في جميع الجبهات أثناء المعارك، كما هو الحال دائما ولكن البطل الحقيقي كان الرجل الذي رتب للمعركة كلها، والذي قرر برباطة جاش، ما كان يتعين فعله، ثم انجزه في مواجهة صعاب هائلة، وشكاو مريرة، ويقول جون بولوك أيضا أن الرئيس السادات نجح في تسوية الخلافات، وفي أنهاء المشاحنات وحقق وحدة هائلة بين العرب. وفي مصر تغلب على المعارضة وتجاهل النقد، بينما كان ينتهج في أخلاص السياسات التي يعتقد أنها صحيحة وأخيرا أكد أنه قائد كبير، كما لو كان هاري تورمان، العرب .

وحقا لقد كان السادات جديرا بهذه العظمة"..

وعن آثار حرب أكتوبر ١٩٧٣، في داخل إسرائيل، يقول جان كلوه جيبوه في كتابة: " الأيام المؤلمة في إسرائيل" ، وهو يتحدث عن وفاة بن جوريون في الساعة العاشرة، والدقيقة السادسة من صباح اليوم الأول من ديسمبر ١٩٧٣ في مستشفى تيد هاشومبر بالقرب من تلك أبيب لم يقل دافيد بن جوريون شيئا قبل أن يموت: غير أنه رأى كل شيء لقد كان في وسع القدر أن يعفي " الأسد" المريض الذي أصيب بنزيف في المخ يوم ١٨ من نوفمبر السابق، لتلك الأسابيع الثمانية الأخيرة من عمره وبذلك كان عليه أن يحمل معه إلى قبره صورة دولة تقف منتصرة في عيدها الخامس والعشرين فخورا بما حققته، مزهوة بقوتها، ولقد تكون مدركة لمظالم ارتكبتها ولكنها تكرر وراء بين جوريون نفس ما سبق أن قاله وهو : لا يهم ما يقوله، الأناس المهذبون، ولكن الذي يهم هو ما يفعله اليهود" أنه تفاخر... وجد، ولكن وأسفاه، فإن القدر كان قاسيا، ذلك أن صحوة أول رئيس لمجلس الوزراء الإسرائيلي في أيامه الأخيرة، هي التي جعلته يشهد انهيار عالم بأكمله، وهذا العالم، كان عالمه: لقد رأي وهو في قلب مستعمرته، رأى إسرائيل وهي تنسحق في أيام قلائل، نتيجة لزلزال كان أكثر وحشية مما هو حرب رابعة، ثم راح يتابع سقوط إسرائيل الحاد، وهي تهوي هذه المرة من علوها الشامخ، الذي اطمأنت له حتى قاع من الضياع لا قرار له، فهل كان أنور السادات يتصور وهو يطلق في الساعة الثانية من بعد ظهر السادس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أكتوبر، دباباته، وجنوده لعبور قناة السويس أنه إنما أطلق قوة عاتية رهيبة كان من شأنها تغيير هذا العالم، أن هذا الانقلاب المروع قد اتخذ فيما يتعلق بإسرائيل شكل الزلزال المدمر، ذلك أن الحرب، التي عصفت بها كانت قاسية عليها، في ميادين القتال، ثم كانت أشد من ذلك دمارا على النفوس وقد شـــهدت الأيام المؤلمة، وهي الأيام التي تسبق عند اليهود، يوم عيد الغفران، مصرع حلم كبيـــر تهـــاوى، ورأت بعد ذلك صورة معينة لإسرائيل وهي تزول إلى الأبد.

ولقد مر الآلاف من اليهود، يومي الأحد، والاثنين الثاني والثالث من شهر ديسمبر، أمام مـــدخل مبنـــى الكنيست بالقدس، حيث رقد جثمان بن جوريون، في نعش بسيط متواضع يحيط به الحـــرس البرلمـــاني وأثنان من رجال الدين العسكريين، وكانت الشمس ساطعة فأزاحت السحب الكثيفة المعروفة عن الـــشتاء في إسرائيل، وبدأ الطابور الطويل الذي اصطف فيه الجمهور يتعرج، ويترامى حتى التلال البعيدة، ولـــم يكن أولئك الشباب والشيوخ الذي يتوقفون لحظة أمام النعش يبكون في ذلك اليوم" أبا إسرائيل" فقـــط أو الألفين والثلاثمائة قتيل الذين سقطوا في تلك الحرب وحسب لكنهم كانوا يوارون التراب عالما بأســـره، وربما أيضا خطأ صهيونيا جسيما، كان الأسد العجوز قد ساعد في مولده وإذا به يموت معه...

وليس هناك اليوم من يعرف المستقبل، الذي سوف تئول إليه إسرائيل، وقد أصبحت تقف وحيدة في عالم متغير على أن هناك شيئا واحدا مقطوعا به هو ألا تقوم بعد الآن وإلى الأبد إسرائيل كما كانت في عهد بن جوريون".

وفي كتاب " الحرب، كما يراها المدنيون الإسرائيليون" لكاتبه اليهودي الفرنـــسي تيـــو كلايـــن صـــورة صادقة لحرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وآثارها " المدمرة"، على الشعب الإسرائيلي، يقول تيو كلاين بعـــد أن انتهى من وصف الجو المرح الذي كان يعيش فيه الإسرائيليين، قبيل الحرب: يتوقف الجو المرح فجـــأة عندما تدوي في الفضاء صفارات الإنذار ويتساءل الجميع، لماذا تطلق هذه الصفارات. ثم يجيء الرد:

لقد شن المصريون، والسوريون، الحرب على إسرائيل، وتمتلىء شاشة التليفزيون بوجه جولدا مـــائير، التي تبدأ الحديث بصوت متعب وفي لغة عبرية تشوبها اللهجة الأمريكية:

يا بني إسرائيل لقد هاجمتنا جيوش مصرية وسورية وهي تضربنا، في سيناء، والجولان، ولكن قـــوات الدفاع الإسرائيلي تحاول صد العدوان فلا تخافوا، ولا تفزعوا فليست هذه هي المرة الأولى التي نخوض فيها الحرب ولسوف يجيئنا جيش الدفاع الإسرائيلي بالنصر، الذي فيه نجاتنا، وعيشنا في سلام، ويظهر على شاشة التليفزيون موشيه ديان ويتحدث كما يقول كلاين بكلمات تتسم بالوحشية ويخلط هذه الكلمـــات ببعض عبارة من التوراة وخاصة عندما كان يصف الهزيمة التي سوف تحيق بالمصريين والـــسوريين: لسوف نحطم لهم السيقان، والأفخاذ، ويتساءل اليهود الذين لا دارية لهم بألفاظ التوراة عما يكون المعنى،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي قصد إليه ديان بهذه العبارة وماذا كان معنى أنزال الهزيمة الساحقة أو تحطيم ودق العظام، وكان تساؤلهم هو : ترى عظام من تلك التي ستدق، وتتجه زريه زوجة أحد الجنود، الإسرائيليين واسمه جاك إلى المكتبة بحثا عن ترجمة فرنسية لهذه الكلمات العبرية، فعثرت على كتاب يفسرها، على هذا النحو: تحطيم السيقان، والأفخاذ. معناه بلغة الحرب عند اليهود إنزال الهزيمة الساحقة بالجيوش المعادية سواء كانت من الفرسان، أو المشاة. وفي كل مكان – كما يقول الكاتب اليهودي الفرنسي، في إسرائيل، في كل بيت في كل تجمع، كان الجميع يتساءلون :

هل هذه النهاية حقا.... ؟ لطالما حذر القادة الإسرائيليون، من أن إسرائيل لن تتحمل هزيمة واحدة، أمام العرب وأنه فور وقوع هذه الهزيمة سوف تقتلع إسرائيل من جذورها وتزول نهائيا من الوجود: فهل جاءت فعلا هذه اللحظة؟

وفي اليوم الرابع، للحرب صدرت الصحف الإسرائيلية وفي مقدمتها رسالة حاخام إسرائيل، الأكبر وفيها يقولك إن حكماء اليهود يقولون إن عيد الغفران، هو تكفير عن اللعنة التي حلت بنا، وأن أيامنا الرهيبة في أمتحان لضمائرنا، وفي يوم عيد الغفران بالتحديد جاءنا موسى بوصايا الله لكي نمتنع عن عبادة العجل فهل مازلنا نعبده؟

قرأ الشباب الإسرائيلي هذه الرسالة ولم يفهموا منها شيئا وخاصة اليهود الفرنسيين الذين بدأت تراودهم أفكار غريبة: لماذا يبقون في إسرائيل المهددة دائما، بالفناء، ومن يكون العجل الذي يعبدونه الآن؟.

أن العجول كثيرة في إسرائيل. وكل عجل يتفنن في الطريقة التي تجعل يهود العالم يعبدونه بها... غير أن الحرب الأخيرة والمفاجآت التي ظهرت فيها ابتداء من الاقتحام العربي، إلى انهيار الحصون الإسرائيلية، إلى خطر الكارثة التي ظلت تحلق ايامها في جو إسرائيل، وتهددها بالزوال.

كل ذلك، كان من شأنه أن تحطمت بعض العجول المعبودة وفي قمتها بعض العجول المعبودة وفي قمتها بن جوريون الذي مات مدحورا مقهورا وموشيه ديان، الذي طرد شر طردة وجولدا مائيل التي خرجت من الحكم مريضة بائسة، ثم المؤسسة العسكرية التي فقدت ماء وجهها ولم يعد يصدقها أحد فيما تزعم، أو تقول: تلك هي بعض آثار الزلزال الذي انزلته حرب أكتوبر بإسرائيل من وجهة نظر كاتب عرف عنه معاداته للعرب، وآخر عرف عنه انتماؤه لإسرائيل، وتحمسه الشديد لها، وثالث يعتبر من غلاة الصهيونيين، ولم نشأ أن ننقل أية وجهة نظر عربية، أو مناصرة للعرب في هذه الحربن التي جعلت كل شيء في إسرائيل يتغير ويتبدل. وفي مقدمة ما تغير، وما تبدل في إسرائيل بسبب حرب أكتوبر، النظرة إلى الحرب والنظرة إلى السلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن إسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨، لم تكف أبدا عن العمل الحربي، للحصول على المزيد من الأرض، في كل جيل تقريبا، وإسرائيل، كما يؤكد قادتها - كل قادتها - لم تشأ في أي يوم من الأيام منذ عام ٤٨ إلى اليوم أن توقع، على أية وثيقة مكتوبة تعترف بحدود الدول المجاورة لها وخلال الخمسين عاما الأخيرة، لم يتوقف الإسرائيليون بصفة خاصة عن الحديث عن " الحقوق التاريخية للشعب الإسرائيلي" وعن الحدود الإسرائيلية من وجهة نظر الديانة اليهودية وعن مملكة شاءول، ومملكة داود، ومملكة سليمان، وعن الكلام عن الحقوق التاريخية لإسرائيل والحدود الإسرائيلية من وجهة " اليهودية" لا يكف الإسرائيليون عن إدعاء ملكيتهم، لصيدا وجبل الشيخ، ووادي العريش، و" فلسطين الكبرى" أو فلسطين داود وسليمان " من الفرات حتى وادي العريش" بل أن فلسين وسورية، وسيناء جزءا من قبرص ترد على السنة قادة الفكر الصهيوني بأنها ضمن" دولة إسرائيل الكبرى"

وقد كتب ذات مرة – في يونيو ١٩٤٨ - دافيد بن جوريون واسحاق بن زفي مقالة عن الحدود الإسرائيلية قالا فيها: يحد فلسطين غربا البحر الأبيض المتوسط، وفي الشمال جبال لبنان، وفي الشرق الصحراء السورية" صحراء الشام" وفي الجنوب شبه جزيرة سيناء: هذه هي الحدود التي حددتها الطبيعة لفلسطين وبكلمات أخرى تضم فلسطين النقب برمته، واليهودية والسامرة والجليل وسنجق حوران وسنجق الكرك، بما في ذلك معان، والعقبة، وجزء من سنجق دمشق أي أقضية القنطيرة، ووادي عنجر، وحاصبيا" ويضيف بن جوريون وبن زفي إلى ذلك كله أراضي العريش ويحدد حاييم وإيزمان دولة إسرائيل - في يوليو ١٩٤١ بأنها فلسطين، وشرق الأردن، والمناطق الجنوبية من لبنان بما فيها نهر الليطاني"، وقد جاء في النشيد الذي كان جابوتشكي قد ألفه وأشارة إلى أن نهر الأردن يمر في وسط إسرائيل.

وقد انتقدت عصابة الأرجو، في سبتمبر ١٩٤٧ مشروع التقسيم في مذكرة رفعتها إلى الأمم المتحدة أكدت فيها أن أرض إسرائيل، لا يمكن تقسيمها، ولا يجوز بل من الواجب إعادة توحيدها فشرق الأردن جزء لا يتجزأ من وطننا ألام وقد حولت بريطانيا هذا الجزء من بلادنا تحت ستار منحة الاستقلال إلى مستعمرة أخرى من مستعمراتها وتعلن منظمة الأرجون: أن كل اتفاق يوقعه أفراد أو مؤسسات على أي مشروع للقسيم غير ملزم لشعبنا، فتوقيعهم لاغ، و ولا قيمة له منذ البداية وكل معاهدة يجري توقيعها، على أساس التقسيم تنقصها صفة الشرعية وعندما نشر بن جوريون صفحات من مذاكرته في العدد الممتاز الذي أصدرته صحيفة معاريف الإسرائيلية بمناسبة مرور عشرين عاما على قيام دولة إسرائيل تحدث بن جوريون عن الأرض التي وعد بها ابراهيم، وذكر مملكة داود وسليمان التي امتدت من النهر الكبير لنهر الفرات، إلى نهر مصر" النيل".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصر يهوذا ميثون وكان يشارك في اجتماع رسمي في ١٨ أغسطس ١٩٥١ على أن حدود الدولة اليهودية تمتد من " الفرات إلى النيل" و... و...

وبعد عدوان ١٩٦٧، كثر حديث الإسرائيليين عن الحقوق التاريخية للشعب اليهودي وعن الحدود الإسرائيلية من وجهة النظر اليهودية وفي ذلك يقول بن جوريون في ٦٧/٦/٢٣ : لابد من احتفاظ إسرائيل بالقدس، وقطاع غزة ومرتفعات الجولان. ويصرح أشكول بأن إسرائيل لا بد وأن تحتفظ ضمن ما تحتفظ به بقطاع غزة، ويصرح موشى ديان في أغسطس ١٩٦٧ بأن إسرائيل ترفض العودة تماما إلى حدود ١٩٤٩ القديمة وأنها لابد وأن تحتفظ بكل من شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان ومضايق تيران كما أن سلسلة الجبال الواقعة غربي نهر الأردن تقع في صميم التاريخ اليهودي" ويؤكد، إيجال ألون- وكان يومئذ وزيرا للعمل في خطاب ألقاه في اتحاد، الكيبوتزات الموحد، أن الجولان قطعة من إسرائيل، القديمة لا تقل أهمية عن الجليل ونابلس. ! ويصرح اسحاق رابين وكان وقتئذ – في ديسمبر ١٩٦٧ – رئيسا للوزارة الإسرائيلية أمام المؤتمر الوطني للجالية اليهودية في نيويورك أن إسرائيل سوف ترتكب غلطة تاريخية فيما لو تخلت عن المكاسب الإقليمية التي حققتها في حرب يونيو ١٩٦٧ ويصرح، أكثر من مرة إيجال آلون بان علينا أن نقيم إسرائيل الكبرى وعلى العرب، وبقية العالم، الامتثال للأمر الواقع.

وفي ٦٨/٧/٢٠، أكد ديان على أن إسرائيل لن تتخلى أبدا عن المناطق التي احتلتها بعد ١٩٦٧ وستتمسك بصفة دائمة بمنطقة شرم الشيخ، ومرتفعات الجولان، والقدس، وأنها لا يمكن أبدا أن تقبل العودة إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ وحتى بعد حرب ١٩٧٣ ظل الإسرائيليون بصفة عامة والقادة الإسرائيليون بصفة خاصة لا يتحدثون إلا عن " حقوقهم الثابتة" في الضفة الغربية، وغزة، والجولان، وسيناء وكانت كل الاستفتاءات، التي تقوم بها المعاهد، الإسرائيلية وفي مقدمتها معهد البحوث الاجتماعية والتطبيقية التابع للجامعة العبرية ومعهد يوري و... و... تؤكد أن أغلبية الإسرائيليين تصر على الاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها إسرائيل بعد عدوانها الآثم في ٥ يونيو ١٩٦٧... ففي ١٩٧٣/٧/٩ ، وفي صحيفة دافار الإسرائيلية تحدث حاييم بارليف وزير التجارة وقتئذ فقال أن إسرائيل، والضفة الغربية كانتا وستبقيان وحدة اقتصادية واحدة...

ويقود تجمع ليكود حملة لتوقيع عرائض لمطالبة الحكومة الإسرائيلية بالإبقاء على الأراضي المحتلة بعد ٥ يونيو وعدم تقديم تنازلات إقليمية وقد وقع على هذه العرائض في يوم واحد أكثر من ثمانين ألف شخص من بينهم موشى ديان وتنشر صحيفة هاآرتس الإسرائيلية عريضة موجهة من جماعات كثيرة من الإسرائيليين إلى الكنيست الإسرائيلي جاء فيها: نحن مواطني إسرائيل، الموقعين أدناه انطلاقا من حق شعبنا في أرض إسرائيل، وفي الأمن، والاستيطان، والسلام نناشد الكنيست أن يضمن عدم تسليم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يهودا وشمرون" الضفة الغربية" إلى أية سلطة أجنبية ويوقع موشى دايان في ١٩٧٤/١٠/١٥ على التماس أعدته كتلة ليكود، تطلب من الحكومة الإسرائيلية عدم التخلي عن شبر واحد من الضفة الغربية للأردن، التي يرى الوطنيون، ورجال الدين الإسرائيلي بأنها تراث تاريخي، للشعب اليهودي وكانت إسرائيل، تطلق على الجزء الجنوبي من شرم الشيخ اسم منطقة تلومو وكانت إسرائيل تبذل قصارى جهدها وتنفق عشرات الملايين من الليرات الإسرائيلية على تعميرها والاستيطان فيها، ولم يعرف أن إسرائيليا واحد قد ذكر خلال الفترة من ٥ يونيو ١٩٦٧، إلى ١٨ سبتمبر ١٩٨٧ أن شرم الشيخ يمكن أن يعود لمصر ورغم مبادرة السلام، التي قام بها الرئيس السادات للقدس في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ ورغم أنها قضت إلى حد كبير، على الحاجز النفسي المعقد:

حاجز الشكوك حاجز النفور ، حاجز الخوف من الخداع والأوهام ورغم أن الرئيس السادات كان في خطابه الخطير أما الكنيست في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧ واضحا صريحا إلى أبعد حدود الوضوح، والصراحة في أعلان المطالب العربية إلا أن مناجم بيجين رئيس الوزارة الإسرائيلية لم يشأ أبدا أن يذكر حقوق الشعب الفلسطيني في خطابه الذي رد فيه على خطاب الرئيس السادات كما أن بيجن في خطابه هذا أكد شرعية الوجود الإسرائيلي على أرض فلسطين لا استنادا إلى وعد بلفور ولكن على أساس ما سماه بالحق التاريخي للشعب اليهودي وإن إسرائيل لم تأخذ أرضا أجنبية ولكنها كانت على هذه الأرض منذ الأزل، وعاد اليهود إلى موطنهم الأصلي.

وحتى بعد زيارة الرئيس السادات للقدس، وبعد مباحثات القاهرة، والقدس، والإسماعيلية، و...و... لم يتوقف القادة الإسرائيليون عن الحديث عن الحقوق التاريخية للشعب اليهودي وعن حدود إسرائيل كما تراها الدولة الإسرائيلية، بل أنني لا أذكر، أبدا أن مناجم بيجن، قد ذكر ما في أي حديث له كلمة الضفة الغربية، أنه يطلق عليها باستمرار " يهودا وشمرون" ولا نذكر أبدا أن مسئولا إسرائيليا قبل اتفاقية ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ قد اعترف بأن لإسرائيل حدودا دولية يمكن أن تكون محددة، في كل ما كان يقوله القادة الإسرائيليون في مذكراتهم الرسمية، حتى التي يبعثون بها إلى الهيئات الدولية ترفض الحديث عن الحدود الإسرائيلية فإسرائيل، في رأيهم جميعا، وبدون استثناء ليس لها حدود ومنذ أقامتها فخطوط الهدنة هي خطوط عسكرية مؤقتة، إلى أن يتم تحديد حدود سياسية كما أن خطوط الهدنة قد ألغيت عام ١٩٦٧، وليس هناك

- كما يقول إيجال ألون في كتابه الأمن الإسرائيلي- سوى خطوط وقف إطلاق النار...."

- والجدير بالذكر، ونحن لا نتكلم هنا، عن اتفاقية ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ إلا بصورة عامة إذ أننا سنتناول الكلام عنها بالتفصيل في الأسبوع المقبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجدير بالذكر، أن اتفاقية ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ قد قضت على كثير من الادعاءات الإسرائيلية، التي ظلت القيادات الإسرائيلية ترددها أكثر من نصف قرن.

لأول مرة- مثلا- في تاريخ إسرائيل، يعترف الإسرائيليون، بالحدود الدولية لمصر، حدود أيام الانتداب، صحيح أن مصر ليست بحاجة إلى مثل هذا الاعتراف لأن سيناء جزء لا يتجزأ من مصر منذ الأزل إلا أن اعتراف إسرائيل بتلك الحدود، يعتبر بلا جدال نكسة للفكر الإسرائيلي، الذي ظل يدعي أن له حقوقا في شبه جزيرة سيناء.

كانت القيادات الإسرائيلية تصر باستمرار على استبعاد التسوية الشاملة وتصر على التسويات المنفردة وقد جاءت وثيقة كامب ديفيد الأولى تحمل عنوان إطار السلام في الشرق الأوسط وأشارت الاتفاقية أكثر من مرة إلى التسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها وجاءت الوثيقة لتشير أكثر من مرة أيضا إلى الإطار المناسب لتشكيل أساس السلام لا بين مصر، وإسرائيل فحسب وإنما بين جيرانها الآخرين.

في الوثيقة الأولى لكامب ديفيد اتفاق صريح على أن القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل، وجيرانها هو قرار مجلس الآمن رقم ٢٤٢ بكل أجزائه وكذلك القرار رقم ٣٣٨.

وكان مناحم بيجن، قد ألتزم أمام الكنيست بأنه لا يخلي المستعمرات الإسرائيلية لا في سيناء ولا في غير سيناء. ورأى عرض الأمر على الكنيست باعتباره صاحب السلطة وقد وعد مناحم بيجن بألا يتحدث في الكنيست عن موضوع المستعمرات بل يقف موقفا محايدا.

عند الكلام عن مستقبل الضفة الغربية، وغزة في الوثيقة الأولى لكامب ديفيد اتفاق على نقل منظم وسلمي للسلطة وإحلال الفلسطينيين في الحكم الذاتي الكامل للضفة الغربية وغزة محل السلطات العسكرية والإسرائيلية بمجرد أن يتم انتخاب سلطة حكم ذاتي من قبل الفلسطينيين انفسهم.

في الاتفاقية الأولى لكامب ديفيد أيضا أشارة إلى أن الحل الناتج عن المفاوضات الخاصة بتحديد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة: أن يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبهم العادلة وضرورة أن يشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم.

في الاتفاقية الثانية لكامب ديفيد اتفاق على ممارسة مصر لسيادتها الكاملة على المنطقة التي تمتد إلى الحدود المعترف بها دوليا، بين مصر وفلسطين في فترة الانتداب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الاتفاقية الثانية أيضا لكامب ديفيد اتفاق على الانسحاب من كل سيناء، وعلى الحدود الدولية لمصر على أن يبدأ الانسحاب فور توقيع معاهدة السلام خلال ثلاثة أشهر.

أصرت مصر، على ضرورة إزالة الوجود الإسرائيلي في سيناء، على أن يعرض أمر ترك الإسرائيليين للمستوطنات في سيناء على الكنيست الإسرائيلي في ظرف ١٥ يوما فإذا وافق الكنيست على إخلائها من سكانها وعودتها إلى مصر، تعتبر اتفاق المبادئ وكأنه لم يكن، وبالتالي لن تبدأ بعد ذلك مباحثات السلام.

وبعد فأننا لن نستطيع أبدا، وبأية حال من الأحوال والمصور ماثل للطبع أن نسترسل في الحديث عن اتفاقيتي كامب ديفيد وما حققتاه للعرب وللسلام العالمي من نتائج رائعة سوف يذكرها التاريخ باعتبارها من أهم أحداث التاريخ المعاصر، وحسبنا أن نقول- وفي إيجاز شديد، أن هاتين الاتفاقيتين كانتا بحق انتصار رائعا، لإرادة شعبنا العربي، الذي أصر دائما على أنه لا تنازل عن بوصة واحدة من الأراضي العربية وأنه لا بد من الانسحاب الإسرائيلي من كل الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧، وأنه لا بد من الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وقد وفى الرئيس السادات ما وعد به شعبنا العربي، وحقق بالفعل كل ما كان ينادي به شعبنا العربي منذ أكثر من عشر سنوات.

لقد كانت معركة كامب ديفيد – بحق- من أخطر معارك السلام في التاريخ، ولست أعرف على كثرة ما قرأت من تاريخ العلاقات الدولية مباحثات اتسمت بالشدة والعنف وتعلقت بها أنظار العالم كله بين اليأس القاتل، والرجاء الواثق، مثلما كان الأمر في مباحثات كامب ديفيد.

والذي نقوله اليوم بعد توقيع هاتين الاتفاقيتين التاريخيتين أنهما ليسا إلا اللبنات الأولى في صرح السلام وأن الطريق إلى السلام مازال طويلا جدا ومحفوفا في نفس الوقت بالمخاطر وأننا يجب أن نعترف بصراحة ووضوح

- كما يقول الرئيس الأمريكي كارتر – أنه لا تزال أمامنا صعاب كثيرة باقية، ولا تزال أمامنا مسائل عسيرة كثيرة يجب أن يتم تسويتها ولن تزول تلك الصعاب، ولن تسوي تلك المسائل إلا بالإرادة القوية وإلا باتخاذ قرارات هامة ضرورية لتحقيق آمال الشعب الفلسطيني في نيل حقوقه المشروعة وفي تقوية إيمانه بالسلام القائم، على الحق والعدل....

- ونحن لا نملك في تلك الساعات الحاسمة من تاريخ أمتنا إلا أن نتوجه إلى الرئيس القائد أنور السادات الذي ضحى في سبيل الحرب، ما لم يبذله أحد شاكرين له تلك الجهود الجبارة المضنية التي بذلها ويبذلها في سبيل السلام، مؤكدين له ثقتنا المطلقة به وإيماننا الراسخ بقيادته الحكيمة والله معه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دائما في حله وترحاله الله معه في كل معارك المصير، العربي، التي يخوضها بما نعرفه عنـــه مـــن إيمان وصدق.

www.anwarsadat.org

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com